(٥)

المناجاة الباطنة عند جويس

كتب جويس فى يوليسيز ٢٦٠ ألف كلمة فى ٧٣٣ صفحة أثناء سبع سنين ولم يكتب لغواً ولا حشواً ، ولم يسهب فى غير وجه، ولم يستعمل مترادفاً ولا مكروراً ولا متوارداً ، ولم يرغب فى إظهار إلمامه باللغات الأوربية القديمة والحديثة ، وإنما اتخذ اللغات وسيلة للتعبير عن أفكاره ، ويخيل إليك أنه يكتب لغة إنجليزية غير اللغة التى تعرفها لنضارتها وزهائها وبهائها ، وحلاوتها وتنسيقها ، وانسجامها واتزان نثرها ، كأنه شعر منثور غير مقصود من كاتبه كما كان شأن أناتول فرانس فى ثورة الملائكة ، وخلق لنفسه أسلوباً ومنهجاً وطريقة ، ويهولك سعة علمه وقوة حافظته وغزارة مادته وسهولة استرساله ، فإن الألفاظ تنثال انثيالاً كالمطر ، ولكن نقاط المطر هذه تأتى مرة كاللألىء المنظومة ، وتارة تنهال انهيالا وتنهمر انهماراً كالسيل العرم الجارف ، وتأتى مرة كأشعة الشمس وذرات النور التى تبعثها الشمس والقمر وسائر الكواكب ، وتراها أخرى

كقطع الظلام المخيمة على . ان تعرفه فتتبين معالمه ولا يفوتك منها شيء ، ومرة أخرى كالأحجار الضخمة المصقولة التى بنى منها هرم عظيم ، وقد صفت صفوفاً والتحمت التحاماً ، لا تكاد ترى ملاطه ولكنها متماسكة متساندة تشد بعضها بعضاً ، تتناسق وتتدرج حتى تصل الى الذروة ، ثم إنك تسمع فى أثناء ذلك كله ، نغماً حلواً منتظماً كموسيقى واجنر التى وضعت بحساب دقيق يشبه المعادلات الجبرية التى تنتهى بحل المسألة، وطوراً تلمح فيها الأشكال الهندسية لمعدن حين تتبلور جواهره ، فترى المثلثات والمربعات والمخمسات والمسدسات والمسبعات والمثمنات ، والكريات والمخروط والأسطوانى .

ثم ترى حيناً فى تركيب ألفاظه الغدير الصغير ، والجدول الهادىء الرائق ، وترى النهر العظيم المتدفق ، وتسمع هدير الشلال، ثم ترى البحر العظيم العجاج المتلاطم بالأمواج العالية ، وتلمح الزبد ، وترى ذلك البحر أو المحيط حيناً هائجاً مائجاً يرتفع كالجبال العالية ، وطوراً تراه هادئاً كالمرآة الناصعة ، التى سكب عليها زيت فلا يحركها النسيم ، وتشهد العاصفة ، ثم ترى عجائب أكبر من بساتين غناء الى حراج ذات أشجار باسقة اشتبكت فروعها

فصارت أدغالاً مخوفة .

وإننى لا أحب المبالغة ولكننى أحب أن أنقل الى ذهن القارىء العربى قدرة هذا الرجل فأشعر بعجز البيان فى وصفها ، ولشد ما وددت أن أنقل وأستشهد ، وأن يسمعنى عليم بالانجليزية وبأساليب الكتابة وفى مقارنة اللغات وفهم النصوص ليشاركنى هذا الإحساس ، لأن هذا الرجل كشف لى الغطاء عن خصائص الحروف وأسرار الألفاظ ومعجزة التركيب وقداسة الأساليب .

أنت تقرأ وتفهم ماتقرأ ثم ترى المناظر التى وصفتها لك ، وتسمع الأصوات ، تسمع الموسيقى والغناء والهدير والزئير ، ثم تدرك المعانى الظاهرة والخفية والرموز والألغاز التى يرمى اليها فى غير عناء ، فلا تمل ولا تضجر ، ولكنك تنتقل من طرب الى عجب ، الى استحسان بالغ الى دهشة مفاجئة ، الى سرور مستمر يملك عليك نفسك ، حتى تود أن يشاركك فيه الخيرون والفضلاء وعشاق الجمال والحق من أهل الأرض ، وقد بلغ فرط العجب حتى ظننت أن أنقل هذه المشاعر لمن يعرفون اللغة الانجليزية مستعيناً بالتعريب والإيماء وضرب الأمثال والتشبيه والاستعارة والكتابة وكل أدوات البيان ، حتى أخلق لهم شعور الطرب ، ثم أغلق الكتاب بين الرجاء

واليأس .

تخيلوا قصراً فخماً مشيداً من أفخر مواد البناء ، واختير له أجمل موقع ، وفرش بأجمل الأثاث وزين بأغلى الصور ، وسكنه أجمل الناس خلقا وخلقاً ، وأعلمهم وأدبهم وأفصحهم ، وأتيح لك أن تعاشرهم وتؤاكلهم وتباسطهم وتحاورهم فلم تر فى القصر إلا ما يسرك ، ثم انصرفت عنهم آسفاً لفراقهم .

هذا الشعور ، كان يتملكنى كلما تركت الكتاب مضطراً بعد قراءة فصل من فصوله ، هذا الأدب الحى الجديد كالخمر الجيد العتيق ، كزهر الربيع الذى لايذبل أبداً ، إنه يحرك الناس كالدمى ، وينقل الجماعات كما تنقل بيادق الشطرنج وأفراسه ، وفيلته وقلاعه، حتى الشاه والوزير ، إنها قصة رائعة ، لا أول لها ولا نهاية ولا وسط ، لأنها قصة الحياة بفرحها وحزنها وعبرتها ، قصة كونية رائعة خالدة ، ولو شاء جويس أن يؤلف مائة قصة كتلك التى ألفها فحول الأدب الانجليزى من أول القرن السابع عشر الى يومنا هذا ، لصنع بمجهود أقل مما بذل، ولا أحب أن أذكر أسماء ، ولكننى أكتفى مؤقتاً بالقول إنه أغلق باب القصة بعده ، وأن الكاتب يخجل أن يأخذ قلماً ليخط كلمة فى قصة بعد ماكتب جويس وهذا جزاء

حق للعجزة والضعفاء والأقزام والأدعياء والمقلدين .

وقد بدا لى كل ما قرأته من هذا النوع - بعد قراءة جويس - باهتاً مبتذلاً فيما عدا بضعة كتب مثل فاوست ، ولكن أصبح المؤلفون فى نظرى قبله وبعده نساخاً وأمساخاً أو متصنعين متكلفين، هذه جناية أو عقوبة لهؤلاء ولا ذنب لجويس فيها ، لأن كل الناس لم يخلقوا مثله ، وليس فى جعبة هؤلاء أو أولئك ما فى جعبته، وليس فى حقائبهم مهما كثرت وتعددت بضاعة كبضاعته ، وهؤلاء يلجأون الى تشبيه أو استعارة أو ترشيح ، أما هو فيرسم صوراً ويطرح أحاجى وألغازاً بين يديك ، ويلحقها بحلولها ، ويصور أمامك أبدع التصاوير لوقته ، كأنه ساحر يلقى ببذرة فلا تلبث البذرة أن تنمو وتزدهر وتصير شجرة لها زهر وثمر .

إنه ناقد ينقد العالم أجمع ، ولكنه يدع الأشياء والأشخاص تتكلم وهو بعيد عنها ، لم تنج ناحية من نواحى المجتمع من سهام نقده الرائشة ، ولم يدع زاوية من زوايا الكون إلا ولجها ، ينتقد الدنيا أفراداً وجماعات وحكومات وبلدانا كأنه مدع عام يقيم الدعوى على كل شر وكل سخف وكل غرور وكل ظلم وكل إثم وكل استبداد وكل عبودية وكل سرقة وكل نهب وسلب ، ويطلب العدل

والرحمة فى كل مكان ، وهو يشبع أعداء المجتمع سخراً وهزؤاً ، وقد يصفح أحياناً ويطعن طعنة دامية إن لم تكن الوخزة كافية ، وقد أعانته جرأته على اللغات لتمكنه منها ، فليس فى اللغة الانجليزية قياس كالعربية ، ولكنه حلحل مكابس اللغويين ، ونحت ألفاظاً جديدة وابتدع صيغ جموع جديدة ونسبة جديدة ، وأطلق ألفاظاً قديمة على معان حديثة ، وألفاظاً حديثة على معان عتيقة ، وهو فى عمله هذا واثق من نفسه ، يؤدى كل عبارة على حقها ، ولا احتكاك عنده ، فكأنه يقطع من مقالع ، أو ينزح من بحر، أو يختار من كنز ، فالفرق بينه وبين معاصريه ، كالفرق بين ميكائيل انجلو وبنفنتو تشليني وليوناردو دافنشى ، وبين من ينقلون أعمالهم عن صور باهتة من صنع هؤلاء الأساتذة ، أو قل كالفرق بين المعرى وامرىء القيس والبحترى مجتمعين ، وبين أحقر شعرور منفرداً .

هذا أسلوبه وتلك طريقته .

أما كيف استطاع حشد الألفاظ بمئات الألوف ، ولم ، وفيم ؟ فأقول لقد حشدها وجمعها ونظمها وزحف بها وخاض المعركة ليظهر الحياة فى صور المناجاة الباطنة أو تيار الوعى . فهو بعد أن حرر الألفاظ وفك قيود اللغة ، وحطم سلاسلها وأغلالها ، عمد الى

تحرر التفكير البشرى من طرائقه القديمة بين سؤال وجواب ، وتعليق وشرح واستفسار يشوبه خجل وتردد ، وترك الأبطال والشخصيات يتحدثون إليك على سجيتهم بتداعى الأفكار ومناسبتها ، وتأثير المرئيات والمسموعات على الذكريات القديمة والرغبات المكبوتة ، والأمانى المرتقبة التى يخجل المرء والمرأة أن يبوح بها .

هذه المناجاة الباطنة (أو المونولوج انتريور) هى التى أقامت الدنيا وأقعدتها ، فزعم حاسدوه ونقاده أنه مقلد « لأدوار دوجاردان» الكاتب الرمزى ، ولمارسيل بروست القصاص الفرنسى، لأن دوجاردان سجل خواطره فى مجلس غزل ولم ينطق بكلمة ظاهرة ، وكان هذا فى طفولة جويس ، وجاء بعده مارسيل بروست ، وهو الآخر اتخذ الحوار الذاتى بين المرء ونفسه فى بعض ماكتب فى قصته الكبيرة « البحث عن الماضى المفقود » .

والذى دل النقاد على هذين الكاتبين ليزعم أن جويس مقلدهما ، هو ستوارت جيلبرت ، وهو المرجع الذى يلجأ اليه كل من يكتب عن جويس فيما عدا هذا البحث الذى نكتبه ونحب أن نجعله أصيلاً قائماً بذاته ، غير مرتكن الى أحد غير كتاب يوليسيز لجويس

نفسه .

لا شك أن جيمس شاعر وقد قال عن نفسه إنه نظم أجمل أنشودة بعد شكسبير ، وعمد الى كتابة ملحمة منثورة ، ولكنها شعر من أولها الى آخرها كالملحمة التى كتبها توماس هاردى عن بونابرت ، والملحمتين اللتين كتبهما هوميروس عن أبطال طروادة (آخيل ومن معه) ، وعن عولس وبنلوب وابنهما تليماخوس ، والملحمة شعر وكاتبها شاعر ، والمناجاة الباطنة تتصل بالشعر من ناحية أنها ذلك الحديث الذى لايقال ولا يسمع ، لأنه يجرى بين الانسان ونفسه ، يجرد المرء من نفسه شخصاً آخر يطارحه ويحاوره ويناقشه ليفضى به عما يجول فى ثنايا عقله ، وبه يعبر عن حاله المكنونة وأفكاره المكتمة وهى على حدود العقل الباطن ، وهى نوع من التخيل النفسى يقوم به الانسان بذاته لذاته ، دون تقيد بالتسلسل الزمانى أو المكانى أو التتابع المنطقى ، فهو الكلام المباشر الذى لايخضع لانتقاء الألفاظ أو اختيار الجمل وتركيبها أو النحو والصرف لأنه لن يسمعه أحد سواك ، بل أنت لا تسمعه لأنك لاتنطق به ، لأنك لو نطقت به وسمعته وحدك دون غيرك لدخلت فى عداد المجانين ، وإنك تلقى كثيراً من الخلق عليهم سيما الوقار شيباً

وشباباً ولكنهم يتحدثون الى أنفسهم ، فترى ذلك بحركات الشفاه وإيماء الأيدى وتحريك الرأس والابتسامة العارضة أو العبوس الطارىء ، وقد تسمع أصواتهم لو كنت منهم من حيث لايرونك فيخيل إليك أنهم فقدوا عقولهم ، فإذا رأهم أحد طفلاً كان أو امرأة يصيح « انظر يا أبتاه أو بص ياجوزى الراجل بيكلم نفسه » .

وحقيقة الأمر أن ذلك المتكلم لذاته لم يستطع كبح جماح لسانه وصوته كغيره، وقد تكون أنت عندما لفت ابنك أو زوجتك نظرك الى المحدث نفسه ، تكون أنت أو أحدهما فى نفس حالته ، أى تناجى روحك وتخاطب ذاتك كما يفعل تماماً ، ولكنك لاتنطق ولا تحرك لسانك ولا ترفع صوتك ، دع عنك إيماء اليد أو هزة الرأس.

والإنسان حين يفعل هذا إنما يسجل خواطره ، وطالما أسف العلماء والأدباء، ولا سيما علماء النفس والتاريخ والأدب ، على ضياع تلك المادة الغزيرة التى لايمكن تدوينها أو تسجيلها بالكتابة ، لأن صاحبها لايجود بها ولا يتطوع بها خجلاً وخوفاً ، ولا يتكلم بها بصوت مسموع إلا إذا كان منوماً فى حضرة محلل نفسى ، لأنه يمنعه الخجل أو الخوف أو الحياء أو محاسبة الضمير ، ولأنك لو حاولت أن تحصى أو تسجل الكلام العادى أو الذى نسميه الرسمى

وهو المحوط بأصول اللغة وقواعد النحو واختيار الألفاظ وتركيب الجمل ، ولو فى بيت واحد فى يوم واحد ، لاتملك الورق والأقلام والمداد التى تكفى للقيد والتدوين ، فما بالك إذا شئت تدوين كل مايقال من الكلام فى مدرسة أو محكمة أو مجلس سياسى أو ندوة أدبية أو قطار مسافر أو باخرة أو محفل حاشد أو اجتماع عام ؟

إذن تعين على الكاتب الذى جعل هذا النوع من الأدب مظهر فنه أن يعانى أشد المعاناة فى الاختيار والانتخاب والتصفية والتفضيل والإعراض عن كثير مما يقال ويسمع ، والإقبال على تسجيل الخلاصة المنتقاة والجواهر دون الأعراض .

بيد أن الانسان لا يتكلم طول يومه أو ليلته حتى ولو كانت صنعته الكلام كالمدرس والمحاضر والمحامى والواعظ ، وحتى المرأة التى اشتهرت بالثرثرة ، لاتقضى كل يومها فى الكلام ، فالكلام مهما كثر ، لايشغل من وقت الانسان إلا جانباً يسيراً لأن اللسان يكل والشفاه تتعب ، والسامع يمل مهما كان طروباً أو مؤدباً ، ومهما كان الحديث شيقاً أو نافعاً ، ولكن الذى لايكل ولا يمل ولا يتعطل ولا يعتريه التعب هو العقل ، العقل البشرى أداة إذاعة أبدية أزلية تتسلم فى كل لحظة وتذيع لا تتوقف ولا تتعطل ، ولاتنى ، وهذا

كله يمر بذهن الانسان وهو مايسمى تارة خواطر وطوراً أفكاراً أو لمحات أو لمعات وهى من كل نوع وجنس ولون ، ومنها السريع الخاطف والبطىء المتمهل ، ومنها القصير الوجيز والطويل المسهب ، ومنها مايكون مصدره الرؤية أو السماع أو الملاحظة أو التأمل أو إنعام النظر أو القراءة. ثم تجد أن بعضها يهيج بعضاً وبحركة ويبعثه من مرقده بسبب تداعى الأفكار association des idées ، ولايكون هذا التداعى متحداً فى النوع مطلقاً ، فإن طعم الحليب الذى تشربه الآن قد يدعو الى فكرة منظر جبال سويسرا التى شربت فيها حليباً يشبه هذا الحليب ، وقد يكون الخاطر السار مثاراً لتحريك خاطر محزن ، والصورة الأليمة تدعو صورة مضحكة، والنكتة العابرة سبباً فى تذكر مأساة مروعة ، والكلمة الظاهرة العفيفة النقية ، تهيج لدى أحدهم منظر شهوة قبيحة أو ذكرى تخل بالحياء لا يجرؤ على التصريح بها ، وقد ينتقل العقل من الحاضر الى الماضى ، ومن الماضى إلى المستقبل فى لمح البصر أو أقل ، وقد يؤدى بك خاطر من تلك الخواطر إلى عمل جليل أو مجهود منتج ، وقد غفل الناس منذ القدم عن هذه الحالة النفسية المهمة ، لأن العقل البشرى قد يحل المعضلات وقد يضع خطط

المواقع الحربية ، وقد يرسم المدن ، وقد يهيئ منهاج حياة لفرد أو لأسرة ، أو لأمة ، وقد يشفى من داء أو أدواء بدنية أو روحية ، وما الخواطر بأقل شأنا من الكلام والأفعال .

ولذا كانت قراءة الأفكار من أعظم مايشغل بال الناس سواء فى علم النفس أو الروحيات أو التنجيم والشعوذة ، فلشد مايهم المحقق أن يقرأ أفكار المتهم والمدعى عليه والشاهد والمدعى ، وكم يسعد المحب إذا استطلع أفكار محبوبه ، أو وقف الرجل على أفكار خصمه أو شريكه أو زوجته أو ابنه ، ولم يتنبه الى هذا الشأن للمناجاة الباطنة إلا قليل من العلماء والأدباء ، فحتموا على أنفسهم تسجيل خواطرهم ، ونصحوا الى من يحبون أن يفعلوا مثلهم ، ولو أننا توخينا الأمانة فى النقل واحتفظنا بالنصوص لأنفسنا ، لكان لذلك ثمرات وقيمة لاتقدر .

انظر الى الاعترافات والمذكرات فى تاريخ الأدب القديم والحديث ، إن شأنها راجع الى أنك تطلع على ماكان يجول بخاطر فلان أو فلان ، وأنت تراه فى ظروف وملابسات تختلف تمام الاختلاف عن الحقيقة التى دوّنها ، وترى تفسير أقوال وأعمال قد أبهمت عليك فى وقتها ، ولكنك تدركها الآن فتعذره أو تلعنه ، فلو

أنك كنت كاتباً قصاصاً ، وقصرت عملك على تدوين حديث عدد معين من الناس فى مكان وزمان معينين ، لوجدت أن هذا الذى دونته يستغرق تسعة أعشار كتابك والعشر الباقى ينقضى فى الكلام الرسمى ، أو النفاق الاجتماعى أو قضاء الحاجات التى لابد منها ، مثل قولك « أحضر يا غلام واذهبى يافتاة ، وأين ساعى البريد ، وكم الساعة ؟ وما ثمن هذه السلعة ؟ » الى آخر هذه التوافه والنوافل .

ولكن ما أعظم الفرق بين التسعة أعشار ، والعشر الأخير !؟

إنها من ثدى الحقيقة ، ترضعها فتغذيك وتلقنها من مصدرها الأصيل فتصدقها ولا ترتاب فى شىء منها ويرتاح اليها ضميرك ، وتخالط وجدانك لصدورها عن وجدان غيرك فى حال لايؤذن فيه للكذب بالدخول عليك .

هذه هى المناجاة الباطنة الصامتة ، لاترد الى الذهن فى صورة مرتبة أو منظمة أو منسقة ، ولاتتبع أسبابها فيها النتائج ، ولا تعترف بالمنطق وقواعده ، ولا يجىء فيها الماضى سابقاً للحاضر، أو الحاضر سابقاً للماضى ، بل ترد عليك قطعاً مختلفة الألوان والأوزان والأحجام والطول والعرض والطعم والرائحة

والنغم، كرسائل البريد وطروده ، وكالبضائع التى ترد مخزن الإيداع من كافة أنحاء العالم، أو كالواصلين الى إحدى محطات باريس على قطار قادم من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ، لا تشابه ولا نظام ولا صلة إلا أن تكون أسرة واحدة أب وأم وولد أو عاشقان متماسكان ، أو سجين مقيد يتبعه حارسه ، أو حمال على عاتقه حقائب مسافر بعينه ، أو توأمان متشابهان ، أو ثلاثة أو أربعة غرباء يتحدون فى زيهم ولسانهم وصورهم يتكلمون لغة واحدة كالصينية أو الهندية .

أما فى عالم الذكريات ، التى تحركها المناظر والمسموعات عن طريق التداعى أيضا ، فإن الزمان بأقسامه الثلاثة ، يتداخل ويفقد معناه ، بل كذلك تختلط الأمكنة اختلاط الأزمنة ، وقد يتداخل الزمان فى المكان ويصيران شيئاً واحداً ، وهذا أقرب شىء إلى ما قاله هيرا قليط القديم وبرجسون الجديد عن نهر الحياة فى العلم والفلسفة .

وما يقال عن الكلام كذلك ، يصح عن العواطف والانفعالات والأحاسيس والصور الذهنية ، فمن أمانة الكاتب لنفسه ولغيره أن يسجل هذه الصادرات والواردات بحسب صدورها وورودها

وأوضاعها الأصلية ، غير مقيدة بنحو أو صرف أو بيان أو بديع ، فإنها لمن يدركها غنية عن كل قاعدة وكل قانون .

وقد وردت مسألة المناجاة الباطنة أو الحوار الداخلى على ذهن أحمد فارس الشدياق وهو من أعلام القرن التاسع عشر فى الأدب العربى وعلوم اللغة وإمام النثر فى عصره ، فقال فى صفحة ٣٣ من كتابه طبع باريس : « وبعضهم قال وأنا أيضا حرجت اليوم على زوجتى بأن تطلعنى على جميع ما يخطر ببالها ويخلج صدرها من الأفكار والهواجس وبما تحلمه أيضاً فى الليل من الأحلام التى تنشأ عن امتلاء الدماغ من بخار الطعام أو من بخار الغرام قبل النيام ، وقلت لها إن لم تخبرينى باليقين أضربت بك أبانا القسيس فيكفرك ويحظر عليك ثم يستخرج منك كل ماتكتمين وتضمرين ويطلع على كل ماتسترين وتخفين وتصونين وعلى ماتحذرين منه وتحرصين عليه وترتاحين له وتميلين إليه وتكلفين به » .

وكأن جويس كان على موعد من الفارياق فأودع صفحات كتابه الأخيرة كل ما طلبه هذا الزوج الغيور من زوجته ، وجعله على لسان « فارجون ليوبولد » أو «مولى» – تريزا تدليلاً – زوجة ليوبولد بلوم بطل كتابه « عولس » ، وكأن كاتب الشرق كان قد ألهم أن

سيأتى بعده رجل ذاق من الحياة مثله وهاجر واغترب يغوص بحار اللغات وأنهارها مثل ما غاص على جميع اللآلىء فى مؤلف واحد منتسق وليستخرج بأسلوبه ومنهجه ماتاق له الزوج الغيور فى كتاب « الساق على الساق » .

وهكذا تكمل العبقرية نفسها ولو بعد خمسين عاماً ، والأرواح العالية والنفوس الطيبة والخواطر البارعة تلتقى وتتجاذب كما قال الفرنسى العقول العظيمة تتلاقى :Les grands esprits se rencontrent . فما رأينا فى العربية كتاباً يشبه عولس فى منهجه وبعض محاسنه غير الفارياق ، وبين المؤلفين شبه شديد فى العبقرية وفى الفقر واليتم والهجرة والاجتهاد والتفكير .

وقد وجهت الى الفارياق نقود ظالمة كالتى وجهت الى جويس لأنه هو الآخر هاجم رجال الدين وتناول المسائل النسوية بشىء من الحرية ولامس السياسة من بعيد ونقد الأجناس والأمم والحكومات ، وحارب الأدعياء والمغرورين ، وكلاهما اشتغل بالحرف الأدنى والأوضع من مكانته لينال الرزق الذى يعينه فى وطنه وفى الغربة على خدمة المواهب الأرفع من حظه ومن تقدير الناس فى بداية أمره.

ومسألة ثانية تدل على صواب جويس فى منهجه وتسجيل الخواطر والحوادث وصدق فراسة الشدياق ما رواه فى صفحة ٣٤ عن بعير بيعر (الأمير حيدر) الذى استدعى الشدياق لنسخ دفاتر كان يودعها كل ماكان يحدث فى زمانه إمساكاً للحوادث من أن تنفلت من مدار الأيام أو تنفك من سلسلة الأحوال ، لأنه رأى أن إحضار الماضى وجعله حالاً منظوراً من الأمور العظيمة ، قال الشدياق :

« ولذلك كانت الافرنج حراصاً على تقييد كل مايقع عندهم ، فخروج عجوز من بيتها صباحاً وعودها فى الساعة العاشرة وهى تقود كلبها والريح عاصفة والمطر واكف لايفوت أقلامهم ولا يعدو خواطرهم » .

واستشهد على ذلك بما كتبه « لامرتين » فى ديوانه « التأمل الشعرى » وفى رحلة شاتو بريان الى امريكا وهما أعظم شعراء عصرهما فى فرنسا .

وختم الشدياق هذه النبذة بقوله « فإذ قد عرفت هذا فاعلم أن اعتراضك علىّ فى إيراد ماهو غير مفيد لك لكنه مفيد لى لا يكون إلا تعنتاً ، فإن هذين الشاعرين (لا مارتين وشاتوبريان) كتبا

ماكتباه ولم يخشيا لومة لائم ولم يعترض عليهما أحد من جنسهما ، وقد اشتهر فضلهما وصيتهما » .

وذكر الشدياق أن بعض الجهلاء من أمراء الشرق كان يصادر الكتب ويحرقها (ص ٣٩) ، ومن الكتب التى أحرقت كتاب ورد فيه هذا البيت :

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ماتدرّ لنا ثغل

لأن الأمير ظن فيه تعريضاً برجال الدين وتلميحاً إليهم فأمر بإحراقه ، فأحرق وذرى رماده .

وقرأ فى كتاب غيره :

ما بال عينى لا ترى من بين من لبس السواد من العباد نحيفا

ما كان من لحم وشىء وغيره فيهم فأصلب مايكون ...

فأمر أيضا بإحراق الكتاب وبعث جواسيس فى البلد يتجسسون عن مؤلفه !

وهذا حدث فى انجلترا وايرلندا واستكولاندا وسائر بلاد الأمبراطورية البريطانية فى سنة ١٩٢٢ ومابعدها بشأن كتاب «عولس» ، فما أشبه الغرب بالشرق واليوم بالأمس ! ، وقد قال شاعرهم الاستعمارى « ردبار كبلنج » الشرق شرق والغرب غرب

ولن يلتقى التوأمان إلا يوم القيامة تحت قدم الرحمن وقد نصب العرش وقام الميزان .

وها هما قد التقيا فى ظرف ثمانين عاماً من زماننا الحاضر، فبدأ الشرق بمصادرة الكتب وإحراقها ومطاردة مؤلفيها فى سنة ١٨٤٠ وتبعه الغرب فى سنة ١٩٢٢ أى بعده بثمانين عاماً ، وقبل ذلك بعشرين عاماً اضطهدوا « أوسكار وايلد » وتنكروا له وعذبوه وسلبوه حقوق الحياة والتأليف والارتزاق من شعره ونثره حتى بعد أن قضى عقوبته ودفع دينه للمجتمع سواء أكان حقاً أم باطلاً ، ودِيناً صحيحاً أم مفترى ، وهذا على ذنب لم يظهر له أثر فى كتبه وشائبة لم تشب أدبه المكتوب وفنه الرائع فى مقولاته وقصصه ومسرحياته ، وهو الآخر مواطن لبرنارد شو وجيمس ، وظنى بهذا الأخير أنه لم ينج من مخالبهم ولم يذهب فريسة لأحقادهم وتعصبهم ولم يكن من كباش ضحاياهم إلا لأنه عاش أربعين عاماً بعيداً عنهم وبمأمن من الوقوع تحت سلطتهم أو الخضوع لقانونهم ، فلم تمتد اليه يدهم وراء حدود بلادهم .

فهذا العمل الضخم العظيم الصعب الجليل الجميل ، المنهك اللذيذ ، الثمين النادر ، الذى قام به جيمس جويس فى كتابه عولس،

أعطانا صورة كاملة لحياة مئات من الناس فى مدينة دبلين يوم الخميس ١٦ يونيه ١٩٠٤ لمدة ثمانى عشرة ساعة ، وقد اتخذهم نموذجاً للجنس البشرى فى حياته العادية وجميع أفراده وجماعاته متشابهة .

فكم طيرا أصاب بحجر ؟

أولا : أصاب وحدة الزمان .

ثانيا : وحدة المكان .

ثالثا : وحدة التفكير والعمل .

رابعا: سجل صورة خالدة لا تستطيع الحصول عليها بحقيقتها لو قرأت مالايحصى من الصحف والكتب وفهمتها وحللتها وتحريت الوصول الى الحقيقة فيها .

خامسا :تغلب على عقبات وصعوبات فنية لا يدركها إلا من حاول تسجيلناحية من الحياة فى العصر الحديث الذى يعيش فيه ، لأن التخيل عنالماضى سهل وأسهل منه التكهن بالمستقبل ، أما تسجيل الحاضروالواقع فهذا مادونه الأهوال .

ليس بين النقد والتهكم والهجاء إلا خطوة ، وقد أنطق جويس أبطاله الذين لا عدد لهم والذين حشدهم شيباً وشباباً ، وفتياناً

وفتيات ، عذارى وثيبات ، بما شاء من نقد لاذع وسخرية محرقة ، وهجاء موجع لأعدائه ، وهم أعداء العدل والحق والجمال ، وفى مقدمتهم قوم من بنى وطنه ، وآخرون من حكامه المستبدين المتنطعين، وقد تحمل طويلاً وصبر كثيراً حتى آن أوان الثأر فناله كاملاً وشفى غليله وغليل كل مظلوم ومحروم ومهضوم فى الغرب والشرق ، وكان أول تهكمه على قواعد اللغة وتقييد الألفاظ والجمل وإخضاع المعانى للنحو والصرف ، وتمسك الكتاب بها ، فذلل اللسان وأخضعه لإرادته وتصرف فيه تصرف المالك ، وخلع عليه من فنه جمالاً وجلالاً وجدة ونضارة ، ثم أخذ يسخر من أنواع الاستعارة والكناية التى ملأ بها شكسبير مسرحياته وهو يبحث وراء حقيقة حسب الشاعر القديم ونسبه وعلاقته بالملكة اليزابيث ، ونقض المتهوسين الذين زعموا أن صاحب تلك المسرحيات المنسوبة لشاعر سترافورد أون آفون ليس إلا دوق رتلاند ، وهو نبيل خامل ، وكان جويس قد لقى صاحب هذه النظرية العرجاء أثناء إقامته فى سويسرا ، وعالج أخلاق زوجة شكسبير وما قيل عن عفتها أثناء حياة زوجها ، وحاول أن يثبت أن شكسبير هو مليت نفسه بطل المأساة الشهيرة ، أى أن الشاعر متسلسل من أصل ملكى لم

يصرح به ، ولكنه كان مفهوماً من الحظوة التى نالها فى بلاط اليزابيث الملكة البتول !! وظل يفعل هذا وغيره حتى شبع .

وكيف لا يتهكم من الانجليز ، وهم لم يفهموا كتابه ، فتآمرت سلطات الشرطة ودواوين الجمارك والصحافة على مقاومته ومصادرته ، فكتبت بعض الصحف عن فضيحة جويس ، كما صنعوا من قبل بأوسكار وايلد ، وحذروا القراء من ذلك الكتاب اللعين .

لقد حسب الانجليز فى مبدأ الأمر أن عولس (يوليسيز) كتاب جديد فى الأدب المكشوف ، لا وزن له ولا خطر حتى دلهم عليه كاتب فرنسى اسمه فاليرى لاريو فى نقد كتبه عام ١٩٢٢ ، فبدأت حملتهم عليه لأنه لم يكن فيهم من يستطيع أن يحل رموزه ويفك مغاليقه أو يكلف نفسه مشقة قراءته من أوله الى آخره ، ومنعت الرقابة دخول المخطوط معه إلى إحدى المدن لأنهم ظنوه نوعاً جديداً من الشفرة السياسية ، حتى توسط بعض أهل الفهم والخير ، وأقنعوا الرقيب أو الرقباء بأنه كتاب جديد فى الأدب ، وأنه ليس إلا قصة مكتوبة على نسق القصص الاغريقى القديم وتقسيمه وترتيبه ، فتظاهروا بالاقتناع لئلا يثبتوا غفلتهم وتنطعهم .

كيف لا يتهكم جويس وقد انبرى له المنافقون من المؤلفين مثل شو الذى ذكرناه ثم د٠هـ٠ لورانس المؤلف الإباحى المتهتك ، مؤلف عشيق لادى شاترلى ، وهو أفسق كتاب خطه مؤلف فى لغة الانجليز (وهم كثر) ، وكفى خزياً أنه جاهر فى بعض كتبه بأنه عشق أمه عشقاً محرماً ! لأنه نما وترعرع فى حضنها بعد ترملها ، وكاد أن يقول بل قال « أمى معشوقتى » !! ، هذا الرجل المريض الشاذ بكل علة فى جهازه العصبى وفى مركز الشعور الجنسى كتب هو الآخر ينعى على جويس ويقول « يا إلهى ! إن جيمس جويس خليط متعفن، لا انسجام فيه ! فما له إلا مقتبسات من الكتاب المقدس وغيره من الكتب طبخت معاً كما تطبخ بقايا الكرنب وحثالة المأكولات ، إن الملل يقتلنى حين أقرأ جويس لأنه دعىّ ومتصنع ... إلخ » .

وإن صح لبرنارد شو أن يشتم جويس تقرباً إلى سادته واحتفاظاً بمكانته فى سوق الكتب وتحت جناح السلطة البريطانية الحامية لوطنه القديم ، فكيف يحق لهذا الكاتب المتهتك الفاجر د٠هـ٠ لورانس أن يصف يوليسيز بأن قوامه العهارة المقصودة (كذا) ؟ ، وأنه أدب غث خال من الحيوية والتلقائية ؟

ذلك أن جويس أغلق باب التأليف فى وجوه هؤلاء جميعاً

وحرمهم من كل قارىء فطن يحب الفن ويدركه ويسعى اليه ، وقد بدت كتبهم التى نفقت سوقها واشتهروا وأثروا بسببها كأشلاء الرمم لا يقبل عليها أحد إلا ليواريها خوفاً على الخلائق من نتنها وتعفنها .

ولكن جويس لم يتعرض لواحد من هؤلاء النقاد بذاته ، وقد صان قلمه عن أن يدنسه بالرد عليهم ، ولكنه عمد الى أربابهم وسادتهم وهياكلهم فحطمها جميعا وخربها على رؤوسهم ، ومادامت الضربة أصابت الرأس فليس للأذناب إلا المآل الذى آلت اليه .

لقد جاء جويس بعد وقته وقبل وقته فى آن ، بعد وقته لأن مكانته كانت فى عصر هو ميروس وسوفوكليس وايشيل واوريبيد ، وقبل وقته لأنه لم يؤن الأوان فى هذا المجتمع أن يفهم هذا الرجل أو يقدره حق قدره ، لأن كتابه مايزال مختوماً كقبره ، يمر به الناس ولا يعرفونه ، وهو العارف بكل شىء ، وهو مثال الإنسان المثقف الكامل فى القرن العشرين ، ولا وطن له إلا العالم كله ، ولا دين له إلا الحب والعدل والحق ، ولا ثروة له إلا فنّه ، ولا ميراث له إلا ما تركه تراثاً للإنسانية كلها ولم يختص به بنتاً ولا ولداً ، ولا تاريخ له إلا تاريخ أيرلاندا المعذبة والأدباء المنكورين لأنهم مجهولون ، فهو

جبار كأبطال الاغريق ، وفحل كشعرائهم ، وحكيم كفلاسفتهم ، ولم يكن متطرفاً إلا فى جده وجهاده واجتهاده وفى عزمه وصبره على المكاره والشدائد .